عِصْمَةُ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ آرَاءِ المُفَسِّرِينَ وَالمتَكَلِّمِينَ

(من خلال دراسة آيتي الغرانيق والاعمى)

الشيخ موسى راضي نصار

الحوزة العلمية -النجف الاشرف

فحوى البحث

آية الغرانيق المفتراة على لسان النبي ﷺ تتلخص في ما روّجه المرجفون وأشاعه المشركون من أن النبي حين كان يقرأ سورة النجم، ووصل الى قوله- تعالى- ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ جرى على لسانه ﷺ القول بـ (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) مما أفرح المشركين. إنها فرية نتنة كذبها القرآن الكريم كما سيأتي في سياق البحث.

والأمر الآخر الذي تطرق له الشيخ الباحث، فهو حديث الأعمى وكيف عبس النبي بوجهه فعاتبة الله -سبحانه-.

البحث يعزى الى ميدان علم الكلام اذ استقى الباحث فيه آراءه من مجموعة من كتب التفسير والمباحث الكلامية فتحدث عن عصمة النبي ﷺ وهل يخلُّ العتاب بهذه العصمة؟.

أفق البحث:

أن الاتجاه في الدراسات القرآنية الحديثة للمعتقدات والقيم الأخلاقية التي جاء بها القرآن الكريم، تكاد تكون مختلفة نوعاً ما عن دراسات المنظرين الأوائل الذين أنصب اهتمامهم على التفسير الظاهر لتلك الأحداث الاجتماعية التي حصلت في مسيرة الرسول في أول الدعوة، وفي هذا الشأن هناك آراء عديدة وتفاسير متعددة ساهمت إلى حد كبير في هذه الأحداث التي أخذ بعضها طابعاً مغايراً لنظام القيم والمعايير التي يعمل الدين على تقديسها في سيرورة الحياة الاجتماعية للرسول الأعظم ﷺ ومن المعلوم أن هذا البحث يعالج في طياته اشكالية كانت قائمة بين جماعة من علماء التفسير من السنة والشيعة تخص جدلية ((عصمة الأنبياء)) ومنهم رسول الله ﷺ في نموذجين وقعتا في حياته في أوائل الدعوة، قصة ((الغرانيق)) التي أخذت مساحة واسعة في تاريخ السيرة النبوية وفي التفاسير القرآنية، وحكاية ((الأعمى)) التي تضمنتها سورة ((عبس)) ونظراً إلى نصية القرآن الظاهرة في حكاية الأعمى الذي نزلت في حقه الآيات عبر الخطاب القرآني يظل المعنى الظاهر في جدلية كلامية قائمة على النفي مرة والأثبات مرة أخرى عند المفسرين وأصحاب الكلام، وهو عن وعي وأدراك مميز لتاريخ السيرة النبوية.

ولعل السبب في هذا التباين في هذه الإشكالية هو أن القائلين بصدور الذنب عن الأنبياء لا يرون عصمتهم من الخطأ إلا في حالة تبليغ الأحكام وأداء الرسالة، أما في غيرهما من حياتهم فجائز عندهم وقوع الخطأ منهم[1].

أما الفريق الآخر، فيرى إذا ثبت بالدليل عصمة الأنبياء ﷺ فكل ما ورد في القرآن مما له ظاهر ينافي وقوع الخطأ منهم، فلابد من صرف الكلام عن ظاهره وحمله على ما يليق بأدلة العقول[2].

فكيف ما كان الأمر في فهم الآيات النازلة في حق الأعمى فقد كان غرضها الأول أخلاقياً تعالج حالة مستحكمة

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٣١ ص٥٥.
(٢) المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد ج٢ ص٣٩٩.

ومستهجنة في نظر الإسلام من حالات المجتمع المكي والتي تمارسها فئة متنفذة من الأغنياء والزعماء المتجبرين على الفقراء المستضعفين من المؤمنين، فيكون التعامل مع هذه الحالة في ضوء ما جاء به القرآن من معطيات وقيم أخلاقية تعتبر قاعدة لنظام اجتماعي تكون فيه العلاقات والمعاملات خاضعة بحسب التوجيه الذي يستهدفه الإسلام.

وجد رسول الله ﷺ هذا الصراع في المجتمع المكي قائماً على العلاقات المتنافرة بين هذين الفئتين، فلم يكن من الممكن الدعوة إلى هذا الدين الجديد من دون الاهتمام بشرائح المجتمع المكي كلها فمن التلازم الوثيق بين الدعوة إلى الإسلام وطبيعة النظام الاجتماعي، ذلك التلازم الذي لا ينفصل عن طبيعة الرسول المصلح الذي جاء لإصلاح، الحالة الاجتماعية بكل مقوماتها البشرية فكيف يتعامل مع تلك الفئات غير المتجانسة بالتفاضل والتمايز وهو الذي يريد أن يؤسس إلى تاريخية اجتماعية جديدة تكون حاضنة لكل أنواع البشر، وهو أيضاً من أهداف القرآن.

والذي يدرس الآيات النازلة في حق الأعمى دراسة موضوعية مع مكونات شخصية الرسول من حيث الأخلاق في سيرته الحديثيه، ويقارن بينهما يجد أن الآيات ظاهرة الدلالة في شخص آخر قد غيب في الصدر الأول لتدوين أحاديث النزول، وهذه الروايات في أدانة الرسول وصمة في الدراية، ولذا نجد حالة من التباين واضحة بين الشك واليقين في نسبة العتاب إلى رسول الله ﷺ وتعاقب الجدل فيها، فالقرآن الناقل لهذا الحدث كمسار لغوي وخطابي تتغير في ترتيبه الأنواع التعبيرية لأنه معجزة النبوة ومشروعية الرسالة فمن غير الممكن أن يتلبس النبي ﷺ بهذه الأخلاق المنافية لرجل يدعو قومه للفضيلة، فضلاً أن يكون رسول الله، وهو الذي يخاطب ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[سورة القلم: ٤].

وجود هذه الأخلاق في شخص الرسول تعدّ قاعدة لمخاطبة العواطف الخيرة في المجتمع، وهو أيضاً مأمور بخفض الجناح لمن أتبعه لقوله

تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[سورة الشعراء: ٢١٥] كما أمره الله تعالى بالدعوة والإعراض عن المشركين لقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[سورة الحجر: ٩٤] فليس من الصواب الأعراض عنهم والأقبال عليهم كما تنص الروايات، وهو تصرف غير مقبول لمدلول النص في الإعراض عن المشركين.

إذن هناك تسامح من حيث المبدأ عند علماء التفسير، لكونهم درسوا مصادر نزول الآيات وطبيعة المعارف القرآنية، ولم يدرسوا سيرة رسول الله ﷺ في ضوء القرآن دراسة مقارنة في سيرته الحديثية في المجتمع المكي والمدني، وهذا مما يظهر من تاريخ السيرة النبوية ومتابعة مصادرها وتطور كتابتها في الدراسات الحديثية القديمة والحديثة التي تناولها الدكتور عمار نصّار في أطروحته وهي على وسعها وتعدد مصادرها إذ كانت في خصائص حياة الرسول أو الشاملة لها لم نجد إشارة واحدة إلى دراسة مقارنة تعطي بعداً إنسانياً لحياة الرسول في ضوء القرآن مع كثرة الآيات المتحدثة في هذا المضمار[٣].

ألمح إلى هذا المعنى الشيخ محمد الغزالي في كتابه ((فقه السيرة)) قائلاً: قد تظن أنك درست حياة محمد إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغ لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة، وبعدما تنال من ذلك تكون صلتك بنبي الإسلام ﷺ[٤].

وهناك دعوة مضادة إلى هذا التوجه سمحت لبعض الدراسات على ترجيح حجية النص على حجية العقل، مما يخالف تعطيل عمل العقل على فهم النص القرآني وإظهار المعنى الخفي بدلاً من المعنى الظاهر الذي لا يتفق مع قداسة المخاطب في الآيات، وهذا الاتجاه السلفي يفضي إلى طمس معالم بارزة في حياة الرسول أو بعد مماته، حتى لا تسمح الدراسات بذكرها فتقع مثل هذه الإشكالية الجدلية التي تحكي معاتبة رسول الله ﷺ مع وجود عصمته الحافظة لمسيرته النبوية، وهي التي

(٣) عمار نصّار: تطور كتابة السيرة النبوية عند المؤرخين المسلمين حتى نهاية العصر العباسي ص١٥.
(٤) محمد الغزالي: فقه السيرة النبوية ص٥٠٧.

مسددة من الله تعالى لعصمته قبل الرسالة وبعدها من جميع الذنوب الصغيرة منها والكبيرة في كل ما يتصل بحياته الخاصة أو في شؤون رسالته، فيكون كل ما وردة في القرآن يتنافى مع عصمته فلابد صرف الكلام عن ظاهره وحمله على ما يليق برسول الله ﷺ وهذا الحمل هو بيان وإيضاح وإظهار المعنى الذي تنطوي عليه الآيات اعتماداً على الدليل العقلي.

ومثل هذا الاتجاه في التأويل يفسح لنا المجال في الدراسة القرآنية المقارنة بسيرة الرسول الحديثية، ويمكننا بعد ذلك أن نجزم ببطلان جميع الشبهات التي تعرضت إلى حياة رسول الله ﷺ ومنها شبهة ((الغرانيق)) التي وقعت في أداء رسول الله ﷺ لسورة ((والنجم)) وشبهة الأعمى عندما كان النبي يؤدي رسالته في التبليغ، وأن هاتين الشبهتين من إحدى عشر شبهة تعرض لها رسول الله ﷺ سيأتي ذكرها في حينه.

قصة الغرانيق:

هنا ينبغي أن نذكر أمرين:

الأول: العلاقة التي تتسم بها الآية عند نزولها في أمر الغرانيق.

والأمر الثاني: علاقة الرسول كمبلغ للآيات التي حدثت فيها قصة الغرانيق وعلينا أن لا ندخل في تفاصيل هذا الزخم من الآراء المتشعبة إلا ما يسمح به البحث لأن المنعطف الذي بحثت فيه الآية ما زالت الرؤية فيه ضبابية غير واضحة.

لذا أوحي ظاهر الآية إلى بعض رواة حديث النزول قصة ((الغرانيق)) التي تكلم بها الرسول سهواً وقيل: تكلم بذلك ناعساً عند تبليغه سورة ((النجم)) في منتدى من منتديات قريش حول الكعبة، والحديث مروي بطرق متعددة عن ابن عباس وجمع من التابعين، وقد صححه جماعة منهم الحافظ ابن حجر[٥] نأتي على ذكره في سياق البحث.

أما الحديث فيبدو عاماً تناقلته المجاميع الحديثية، وذكر المفسرون في سبب نزول الآية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ

(٥) الآلوسي: روح المعاني ج٩ ص١٦٩ والطباطبائي: الميزان ج١٤ ص٣٩٦.

﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[سورة الحج: ٥٢].

كان سبب النزول أن رسول الله ﷺ لما رأى اعراض قومه عنه، شق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به وتمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وذلك كان حرصاً منه على إيمانهم حتى قارب قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش حول الكعبة فقرأ عليهم سورة ((النجم)) حتى بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[سورة النجم: ١٩ -٢٠] ألقى الشيطان في لسانه ((تلك الغرنيق العلى منها الشفاعة ترتجى)) فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى الرسول ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين، وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى أتاه جبرئيل ﷺ فقال: ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك؟[٦].

حزن رسول الله ﷺ لذلك حتى نزلت الآية، هذه رواية عامة المفسرين الذين يأخذون بالظاهر أما أهل التحقيق يرون هذه الرواية باطلة وموضوعة[٧] وقد انقسم المفسرون بين مؤيد ومستنكر.

١. **القسم المؤيد**: يرون أن الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم عن جواز السهو والنسيان ووسوسة الشيطان بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب ان لا يتبعوا إلا في ما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم[٨].

فلما كان رسول الله ﷺ يؤدي التبليغ جرى على لسانه سهواً، وهو من غير المستبعد أنه كان قد سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على الايقاع المساوي لأيقاع الآية والفواصل المتقاربة في الوزن والموسيقى، فجرى عند قراءة السورة ما

(٦) النص في كل كتب التفسير بصيغ متفاوتة، وكذلك في السير والتواريخ/ انظر تاريخ الطبري ج٢ ص٣٣٨ وما بعدها.

(٧) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٣ ص٤٩-٥٠ والزمخشري: الكشاف ج٤ ص١٦٤.

(٨) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٣ ص٥٤.

كان في حفظه وسماعه سهواً، وعلى هذا جوزوا السهو عليه، ولا يقر عليه، ولذا أنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيداً لعذره وتسلية له، لئلا يقال: إنه رجع عن بعض قراءته، وقد قال ابن عباس: أن شيطاناً يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله ﷺ في صورة جبرئيل عليه السلام والقى في قراءة النبي ﷺ تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجى[٩].

وقد أحتج أصحاب هذا الرأي في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ [سورة الحج: ٥٣] قال الثعلبي: وفي الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان، أو عند شغل القلب حتى يغلط، ثم ينبه ويرجع إلى الصحيح، وهو معنى قوله تعالى: ((فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته))[١٠].

٢. **القسم المستنكر**: وهم الذين يرون أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان لأنها شرك مخالفة لتوحيد الله تعالى، فكيف يعظمها ويجعلها شافعة لهم، وأنه ﷺ ما كان يمكنه في أول دعوته أن يصّلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً من أذى المشركين له، وكان يغتنم الفرص في خلو الكعبة من المشركين، إذا لم يحضرها نهاراً حضرها ليلاً ليصّلى ويقرأ القرآن، وأن معاداتهم له كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر، فكيف أجمعوا على أنه عظّم آلهتهم حتى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم، كل ذلك يبطل قول من قال في تعظيم آلهتهم[١١].

ولو جاز جدلاً مثل هذا التصرف من الشيطان في لسانه ﷺ بألقاء آية أو آيتين في القرآن الكريم لأرتفع الأمن عن الكلام الألهي، فكان من الجائز أن يكون

(٩) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص٥٨.
(١٠) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص٦٠.
(١١) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٣ ص٥٠.

بعض الآيات القرآنية من إلقاء الشيطان، ثم يلقى نفس هذه الآية ((وما أرسلنا من رسول ولا نبي)) فيضعه في لسان النبي وذكره فيحسبها من كلام الله الذي نزل به جبرئيل، وبذلك يرتفع الأعتماد والوثوق بكتاب الله من كل جهة فتبطل إذن الرسالة والدعوة النبوية بالكلية، ولكن جّلت ساحة الحق من ذلك [١٢].

سند رواية قصة الغرانيق:

مهما كانت الدوافع التي من وراء هذه الرواية سواء نظرنا أليها من زاوية سندها أو من متنها فأنها مثلت حدثاً مغايراً للرسالة والدعوة إلى التوحيد، وأن كان رواتها ثقات بسند سليم، فلا قيمة لهذا السند بموجب الأدلة القطعية على عصمته ﷺ وفي هذه الرواية أتجاهان.

الأول: ذهب إلى صحة الرواية الحافظ بن حجر في شرح البخاري وساق طرقاً عن أبن عباس وغيره، ثم قال: وكلها سوى طريق سعيد بن جبير، إما ضعيف وإما منقطع لكن كثرة الطرق تدل على ان لها أصلاً مع أن لها طرقاً بسند صحيح أخرجه البزاز وطريقين آخرين مرسلين رجالها على شرط الصحيحين، أحدهما أخرجه الطبري من طريق يونس بن زيد عن ابن شهاب، والثاني ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرفعها عن داود بن أبي هند عن أبن العالية، ثم أخذ في الرد على أبي بكر بن العربي والقاضي عياض في أنكارهما الصحة.

فعلى هذا يكون الخبر في هذه القصة مسنداً من الطرق المتصلة بابن عباس مرسلاً مرفوعا من الطرق الثلاثة، والزيادة فيه التي رواها التقات عن ابن عباس في غير رواية البخاري ليست مخلة لما في البخاري عنه فلا تكون شاذة فإطلاق الطعن فيه من حيث النقل ليس في محله [١٣].

الاتجاه الثاني: أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواته بسند صحيح سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون

(١٢) الطباطبائي: الميزان ج١٤ ص٣٩٦-٣٩٧.

(١٣) الآلوسي: روح المعاني ج٩ ص١٦٩-١٧٠.

بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم[١٤] وما روى عن محمد بن اسحاق بن خزيمة يثبت ذلك أنه سئل عن هذه القصة، فقال: هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتاباً، وقال الأمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه قصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم[١٥] وأثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء عارفون بالغث والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه فلم يروه إلا مردوداً[١٦] فلا عذر لأحد بعد التحقيق.

أما متن الرواية فالأدلة القاطعة على عصمته ﷺ تكذبه وإن فرضت صحتها سنداً فمن الواجب تنزيه ساحته المقدسة عن مثل هذه الخطيئة مضافاً إلى أن الرواية تنسب إليه ﷺ، وهذا أشنع الجهل وأقبحه ليس بحق رسول الله وحده وإنما لجميع الأنبياء والمرسلين[١٧] الذين هم قادة البشرية فمن الواجب على الله تعالى عصمتهم لأداء رسالتهم.

وبعد هذه الإطلالة السريعة على هذا المكون الأساسي في هذه القصة يظهر لنا هذا الحراك الروائي إذ كان سلباً أم إيجاباً ليس فيه رؤية منهجية معتمدة لأحقاق الحق، وإنما كل ما جاء فيه استقراء نقلي تداوله الرواة مع أهمية الحدث في حياة الرسول ﷺ ولم يخرجوا بأدلة ملموسة لا في النفي ولا في الأثبات وهو مما لا شك فيه أن طبيعة المرحلة التاريخية والظروف السياسية السائدة هي التي تحدد وظيفة الرواة.

غرض آيات قصة الغرانيق:

ولما كان نزول القرآن بلغة قريش، كان طبيعياً أن يكون أفصح ما تنتهي أليه لغات العرب جميعها، وكان طبيعياً أيضاً أن يكون المرسل له والمؤدي إلى تبليغه قرشي اللغة مؤهلاً سابقاً، فليس من غضاضة أن يكون هذا الرسول المبلغ عارفاً في لغة

(١٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص٥٧.
(١٥) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٣ ص٥٠.
(١٦) الآلوسي: روح المعاني ج٩ ص١٧٣.
(١٧) الطباطبائي: الميزان ج١٤ ص٣٩٦-٣٩٧.

العرب جميعاً ليتحمل مسؤولية التبليغ فضلاً عن معرفته الكاملة بلغة القرآن وقدرته على تميز ألفاظه، فلا يخالجه شك في معرفة ما يقوله وما يبّلغه أو تمر في خاطره مثل هذه الكلمات الغريبة عن منطقه والمضادة لدعوة التوحيد ولم يشعر بها، وهو الذي أصبح كلامه ميراثاً خالداً في البيان العربي كخلود القرآن، وقد روي عن الأمام علي عليه السلام أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب -يريد التركيب البياني -إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ وسمعته يقول: ((مات حتف أنفه، وما سمعتها من عربي قبله))[١٨].

فكيف يمكن أن تمر في ذهن من يمتلك هذه البلاغة، مثل هذه الكلمات في تلاوته للآيات وهو القادر على التمييز وما يقتضيه الأستعمال اللغوي لألفاظ القرآن من غيره من الكلام؟ حتى إذا كان ناسياً أو متوهماً -كما يظن -فقوله تعالى يحبط هذه الادعاء﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [سورة الأعلى: ٦] وقوله تعالى: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[سورة الفرقان: ٣٢] لذا نجد أن كل الدراسات القرآنية القديمة والحديثة التي أجمعت على أن القرآن كلام معجز أسست لجمال أسلوبه وأعجازه آيات عرفانية لإثبات قدسيته ونفي الحالات الطارئة والمعترضة لنصه وقد حفظه الله من كل متلاعب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩] وقال تعالى -في حفظه-﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: ٤٢].

محصل أشكالية الغرانيق:

على الرغم من كثر الأقوال في هذه الاشكالية، من مختلف أعطاءات المفسرين تظل من بينها ما جاء عن السيد المرتضى قدس سره في كتاب التنزيه، هو العطاء الأقرب إلى واقع الحال أنذاك، وأن لم يف بالغرض، قال في تأويل الآية: لما سمعوا من ذكر آلهتهم بما أعجبهم. فهذا الخبر أن صح محمول على انه كان يتلو القرآن فلما بلغ إلى هذا الموضع، وذكر أسماء آلهتهم، وقد علموا من عادته ﷺ أنه كان يعيبها

(١٨) الرافعي: تاريخ آداب العرب ج٢ ص٣٣٣.

قال: بعض الحاضرين من الكافرين تلك الغرانيق العلى وألقى ذلك في تلاوته توهم ان ذلك من القرآن فأضافه الله سبحانه إلى الشيطان لأنه إنما حصل بأغوائه ووسوسته، وهو أيضاً قول الناصر الحق من أئمة الزيدية، وقد حّسن تأويله أيضاً الطبرسي[١٩].

على الرغم من أنخراط المفسرين في هذه الإشكالية المتشابكة والتي أنتجت آراء تكشف عن كثير من التفاصيل، ولكن لم يتضح منها تفسيرً أو تأويل منطقي يثبت عدم صحتها، وحاصل البحث هو:

١. ذكرنا في سياق البحث أن رسول الله ﷺ تميز من دون قومه بالفصاحة والبلاغة، إذ بُعث إلى قوم عرفوا في بيانهم وفصاحتهم، فكيف لا يفرق بين ما أنزا إليه من آيات والكلام الذي حشر معها؟. وإذا كانت ألفاظ الكلمات تطابق روى الآيات في وزنها ونظمها، فهي غير مطابقة في معناها وبلاغتها لأن الآيات -كما تقدم- جاءت في ذم الأصنام، وهي أسماء صريحة في أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، وهي أيضاً غير مطابقة لسياق الآية الذي جاء بذم أصنامهم والكلمات الدخيلة عليها جاءت في وصف الأصنام الذي فيه الكثير من المدح والثناء.

٢. قال الشيخ محمد عبده -في تفسير قصة الغرانيق: أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد ان ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه أسم لطائر مائي أسود أو أبيض، والشاب الأبيض الجميل، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الالهة أو وصفها عند العرب[٢٠].

٣. كان واقع الهزيمة على الوثنيين القرشيين في مكة مراً ومؤلماً في التحدي لأوثانهم، فلما سمعوا الرسول يذكر أصنامهم بالتنقيص منها أنبرى شيطان من شياطينهم فدس هذه

(١٩) الطبرسي: مجمع البيان ج٧ ص٩١.

(٢٠) هيكل: حياة محمد ص١٦٦.

الكلمات المفتريات على الرسول عند قراءته سورة ((النجم)) وذلك عند توقفه في الفواصل، للأستيعاب في التبليغ -كما هو معروف -ولما وصل إلى قراءة ((أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى)) دس شيطان الأنس[٢١] هذه الكلمات ((تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى)) في توقف النبي للفاصلة، ولا سيما ان هذه الكلمات مطابقة لألفاظ الآيات في نضمها ووزنها، فضن هؤلاء الوثنيون أنها من لحن الآيات، فأستبشروا خيراً، فحكى الله تعالى مفتريات شيطان الأنس المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢] والزخرف في الآية القول: المموّه والمزينّ الذي يستحسن ظاهره ولا حقيقة له ولا أصل[٢٢] ومثاله هذه الكلمات المفتريات في وصف الأوثان.

أما كلمة ((تمنى)) في الآية، فتأتي أيضاً بمعنى القراءة والتلاوة[٢٣] فحكى الله تعالى هذه المفتريات يريد بها تنزيه النبي بقوله تعالى: -على تقدير -إذا تمنى -أي قراء -ألقى الشيطان -أي شيطان الأنس-

(٢١) قال القرطبي: في الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص٥٧ وقيل: الذي ألقى شيطان الأنس، كقوله عزوجل: ((والغو فيه)) [سورة فصلت: ٢٦] وقد ذكر الأشعري أيضاً عن هشام بن الحكم المتوفى سنة ((١٧٩هـ -٧٩٥م)) وهو أيضاً من تلامذة الامام الصادق عليه السلام كان يقول في وساوس الشيطان: إن الله سبحانه يقول: ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[سورة الناس: ٤ -٥] قال: فعلمنا أنه يوسوس، وليس يدخل أبدان الناس، ولكن قد يجوز أن يكون الله سبحانه قد جعل الجوّ أداةً للشيطان يصل بها إلى القلب من غير أن يدخل فيه، وقال: ويعلم ما يحدث في القلب، وليس ذلك بغيب، لأن الله سبحانه قد جعل عليه دليلاً مثل ذلك أن يشير الرجل إلى الرجل أن أقبل أو أدبر، فيعلم ما يريد، فكذلك إذا فعل الإنسان فعلاً يريد شيئاً من البر عرف الشيطان ذلك بالدليل، فينهى الإنسان عنه الأشعري: مقالات الإسلاميين ج١ ص١٢٦.

(٢٢) الطبرسي: مجمع البيان ج٤ ص٣٥٢.

(٢٣) الراغب: المفردات ص٤٧٦.

في أمنيته -أي قراءته أو تلاوته-هذه الكلمات المفتريات-﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾وبذلك يرتفع الأشكال.

أما كون الحديث موضوعاً من قبل الزنادقة فقد أشار إليه أكثر المفسرين وأصحاب السير ومنهم أبن أسحاق عندما سئل عن هذه القصة فقال: هذا وُضِع من قبل الزنادقة في تشويه عصمتهعليه السلام وصنف فيه كتاباً[٢٤].

٤. وخلاصة القول: إنه على الرغم من توسع الأراء وتشبعها، وما نسجه بعض المفسرون وأهل السير فأنهم مع تلك الآراء لم يصوغوا تصوراً ينزه الأنبياء من أرتكاب الأثم أو الخطأ وإنما قالوا: بعصمتهم في تبليغ الآيات المنزلة عليهم فقط، بينما تفرد الشيعة بالقول بعصمتهم في كل أحوالهم (أي العصمة المطلقة).

تعريف العصمة:

العصمة: لغة الحفظ، يقال: عصمته فأنعصم، وأعتصمت بالله، إذا أمتنعت بالطفه من المعاصي [٢٥] وفي الاصطلاح: هي ملكة أجتناب المعاصي مع التمكين منها [٢٦].

ويعرف الشيخ المفيد المتوفى سنة ((٤١٣هـ -١٠٢٢م)) العصمة بأنها الأمتناع بالأختيار عن فعل الذنوب والقبائح عند اللطف الذي يحصل من الله تعالى في حقه وهو لطف يمتنع من يختص به عن فعل المعصية ولا يمنعه على وجه القهر، أي أنه لا يكون له حينئذ داع إلى فعل المعصية وترك الطاعة مع القدرة عليهما[٢٧].

إذن هي عبارة عن ملكة نفسية قائمة في ذات الإنسان لا يمكن معها صدور المعاصي لمن أتصف بها مع قدرته على مقارفتها، ويراها آخرون أنها لطف من الله تعالى يصاحب الأنبياء والأوصياء، وهي على العموم وجود أمر، ما في الإنسان المعصوم يصونه عن الوقوع في ما لا يجوز

(٢٤) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٣ ص٥٠.

(٢٥) الجوهري: الصحاح ج٢ ص١٢٢..

(٢٦) الجرجاني: التعريفات ص٨٦.

(٢٧) المفيد: شرح عقائد الصدوق ص١١٤.

فعله من الخطأ أو المعصية.

وقد قسم المفسرون العصمة على ثلاثة أقسام: العصمة من الخطأ في تلقي الوحي، والعصمة من الخطأ في التبليغ والرسالة، والعصمة عن المعصية، وهي ما فيه هتك حرمة العبودية ومخالفة مولوية، وهذه الفقرة الأخيرة يرجع بها إلى قول أو فعل ينافي العبودية[٢٨] فكيف ما كان فأن القرآن يدل على عصمتهم عليهم السلام في جميع الجهات الثلاث.

الاستدلال على عصمة الأنبياء:

وقد أستدل المفسرون وأصحاب الكلام على عصمة الأنبياء عليهم السلام بأدلة نقلية وأخرى عقلية، وهذان الوجهان من الأستدلال كانا ناهضين على عصمة الأنبياء عليهم السلام هما:

١. **الدليل النقلي**: الكتاب في قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[سورة الأنعام: ٩٠] فالآية تدل على عصمتهم مطلقاً فجميعهم عليهم السلام كتب عليهم الهداية، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾[سورة الزمر: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾[سورة الكهف: ١٧] فنفي عن المهتدين بهدايته كل مضل يؤثر فيهم بضلال فلا يوجد فيهم ضلال، وكل معصية ضلال كما يشير أليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾[سورة يس: ٦٢] فعَّد الله كل معصية ضلال حاصلاً باضلال الشيطان بعد ما عدها عبادة الشيطان، فإثبات هدايته تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام ثم نفى الضلال عمن أهتدى بهداه ثم عدل كل معصية ضلالاً تبرئة منه تعالى لساحة أنبيائه عن صدور المعصية منهم، وكذلك عن وقوع الخطأ في فهمهم الوحي وأبلاغهم إياه[٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [سورة النساء: ٦٤] حيث جعل كون الرسول

(٢٨) الطباطبائي: الميزان ج٢ ص١٣٥ -١٣٦..

(٢٩) المصدر نفسه ج٢ ص١٣٧.

مطاعاً غاية للأرسال، وقصر الغاية فيه، وذلك يستدعي بالملازمة المبينة لتعلق أرادته تعالى بكل ما يطاع فيه الرسول وهو قوله أو فعله لأن كلاً منهما وسيلة معمولة متداولة في التبليغ، فلو تحقق من الرسول خطأ في فهم الوحي أو في التبليغ كان ذلك إرادة منه تعالى للباطل والله سبحانه لا يريد إلا الحق[٣٠] ولذا دلت الآية على أن الأنبياءﷺ معصومون عن المعاصي والذنوب وظاهر دلالتها على وجوب طاعتهم مطلقاً قال الفخر الرازي: مستدلاً على ذلك، فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الأقتداء بهم في تلك المعصية فتصير تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرمة علينا، فيلزم عند ذلك توارد الأيجاب والتحريم على الشيء الواحد وإنه محال، وقال أيضاً: وليس في هذه المسألة برهان قاطع عقلي يوجب القدح في عصمة الأنبياءﷺ[٣١] وكل ما في القرآن من آيات تخصهم دالة على عصمتهم من الذنوب.

٢. **الدليل العقلي**: أستدل نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ((٦٧٢هـ-١٢٧٣م)) على عصمة الأنبياء قال: ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق، فيحصل الغرض والوجوب متابعته، وضدها الأنكار عليه[٣٢] وقد شرح العلامة الحلي المتوفى سنة ((٧٦٢هـ-١٣٦٠م)) كلمات أستاذه موضحاً الدليل العقلي الدال على عصمة الأنبياءﷺ من أقتراف المنكر مع قدرتهم عليه، وقد أستدل بشروط ثلاثة:

أ. أن تكون لنفوسهم أو أبدانهم ملكة مانعة عن عمل المعصية، وبهذا يحصل الغرض من بعثتهم، وقد أستدل على ذلك قائلاً: أن الأنبياء المبعوثون أليهم، لو جوزوا الكذب عليهم والمعصية، وجوزوا أيضاً الأمر والنهي والأفعال التي أمروهم بأتباعها فيها فهم حينئذ لا ينقادون إلى أمتثال ما أمروهم به، وذلك نقض

(٣٠) الطباطبائي: الميزان ج٢ ص١٣٧.
(٣١) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج١٠ ص١٦١.
(٣٢) الحلي: شرح تجريد الأعتقاد ص٢٧٣.

الغرض من بعثتهم.

ب. أن يحصل لهم علم بمثالب المعاصي ومثاقب الطاعات حتى تجب متابعتهم، فإذا فعلوا معصية، كانت متابعتهم في دعوتهم إلى الرشد باطلة لأنتفاء فائدة بعثتهم لأن المعصية لا يجوز فعلها لكونهم أنبياء مبعوثين يجب أن لا تلحقهم المعاصي.

ج. أنهم إذا فعلوا معصية وجب الأنكار عليهم لعموم وجوب النهي عن المنكر، وذلك يستوجب ايذاءهم وهو منهي عنه لأنهم أنبياء، إذن كل ما يقع منهم من معصية تخالف بعثتهم[٣٣] ومن هذا المنظور نتعامل مع مسألة العصمة على أنها مانعة من أقتراف المعاصي إذ كانت المعصية كبيرة أم هي صغيرة.

آيات مشعرة بالعتاب:

ليست هذه الآيات القرآنية هي وحدها مستثناة من التأويل والتفسير والمناقشة، وإنما هي خاضعة للتفسير والتأويل كسائر آيات الكتاب العزيز، وبالفعل ظهرت بعض الآراء أساءت إلى عصمة الرسول، وقد فسر الكثيرون الآيات على ظاهرها بما لا يليق ومكانة الرسول على ما يظن أنه عتاب، وهو ليس كذلك بل هو تعليم وتأديب، ولا محال أن تأديب النبي ﷺ كان صادراً عن الله تعالى والمواعظ له ترادفت في كل وقت ومن هذه الآيات التي جاءت بهذا النهج هي.

قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[سورة الأحزاب: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾[سورة الأنفال: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾[سورة التحريم: ١] وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[سورة التوبة: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [سورة عبس: ١ -١١].

(٣٣) المصدر نفسه ص٢٧٣.

تأويل الآيات المشعرة بالعتاب:

التأويل: كلمة مرادفة للتفسير، وهو تفسير ما يؤول أليه الشيء. وقد أولته، تأولاً[٣٤] في القاموس: أول الكلام تأويلًا: دبره وقدره وفسره[٣٥] فالتأويل يصدق على كل كلام له معنى ظاهر، فيحمل على غير ذلك المعنى فيكون هذا الحمل تأويلاً[٣٦] وعلى ضوء هذا وردت في القرآن الكريم آيات تشعر المتابع لها على أنها جاءت عتاباً لرسول الله ﷺ وهي ليس كذلك، على أن ظواهر الآيات التي خوطب بها النبي ﷺ مما ظاهره كالعتاب منها ولكن المقصود به أمته، والخطاب متوجه أليه، ولهذا ورد عن ابن عباس قال: نزل القرآن بأياك أعني وأسمعي يا جارة، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [سورة الطلاق: ١] فالخطاب موجه إلى النبي ﷺ والمراد بذلك جميع الأمة لكونه سيدهم وقدوتهم، فإذا خوطب بخطاب الجمع كانت أمته دخلت في ذلك الخطاب[٣٧] وتقديره يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء، فعلى هذا القول: يرى البعض أن النبي يكون خارجاً من الحكم، والرأي الآخر هو خطاب الرئيس الذي يدخل فيه الأتباع، فعلى هذا يكون حكم النبي حكم أمته في الطلاق، وهو الذي أجمعت عليه الأمة[٣٨].

إذن ما ورد في القرآن من آيات ظاهرها معاتبات إلى رسول الله ﷺ مع وجود عصمته وطهارته وكونه الحجة على الخلق أجمعين ينافي معناها عصمته من الذنوب صغيرها وكبيرها، فلابد من صرف الكلام عن ظاهره -كما يراه السيد المرتضى المتوفى سنة ((٤٣٦هـ -١٠٤٤م)) وحمله على ما يليق بأدلة العقول، لأن الكلام يدلخله الحقيقة والمجاز، ويعدل المتكلم به من ظاهره، وأدلة العقول لا يصح فيها ذلك، وقد أستدل المرتضى على ذلك قائلاً: الا ترى أن القرآن وقد ورد بما لا يجوز على الله تعالى من الحركة والانتقال، كقوله

(٣٤) الجوهري: الصحاح ج١ ص٥٩.
(٣٥) الفيروز آبادي: القاموس مادة اول.
(٣٦) الصدر: المدرسة القرآنية ص٣٠١.
(٣٧) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٣٠ ص٢٨ والطوسي: التبيان ج١٠ ص٢٨.
(٣٨) الطوسي: التبيان ج١٠ ص٢٨.

تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [سورة الفجر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[سورة البقرة: ٢١٠] ولا بد من وضوح الأدلة على أن الله تعالى ليس بجسم، واستحالة الانتقال عليه، لذا لا يجوز إلا على الأجسام من تاويل هذه الظواهر والعدول عما يقتضيه صريح ألفاضها، قرب التأويل أم بعد[٣٩].

هذا الأتجاه من التأويل أراد به السيد المرتضى أن يتوصل في استدلاله إلى أن ظاهر الآيات التي خوطب بها النبي ﷺ يظهر منها ما يظن أنه عتاب، وهو ليس كذلك، بل هو تعليم وتأديب، لأن الله تعالى أدبه وأحسن تأديبه منذ أن كان فطيماً قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له عرفت بـ ((القاصعة)) -: ((ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني الاقتداء به))[٤٠] فإذا كانت تربيته منذ الصغر بهذا الشكل من القدسية لا يمكن اعتبار ما ورد من آيات في القرآن تخصه مؤشراً على القدح في أخلاقه التي تنطوي على قيم لا سبيل إلى معارضتها وعزلها عن خطاب الوحي له كما يراها البعض.

ومن تلك الآيات المعترضة تختزل منها آيات نزلت في حق ابن أم مكتوم الأعمى[٤١] من سورة ((عبس)) ومن ظاهرها يشعر القارئ بنوع من العتاب إلى رسول الله ﷺ وهي موضوع بحثنا الذي يتناول ((حكاية الأعمى)) في الحوار القرآني، وعند ذكر موضوع العتاب نقف وقفة تأمل حول ما أحدثته الجدلية

(٣٩) المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد ج٢ ص١٩٩.

(٤٠) عبده: شرح نهج البلاغة الخطبة ١٨٧ ج٢ ص١٨٢.

(٤١) هو عبد الله بن ام مكتوم بن قيس من بني عامر بن لؤي وأمه أم مكتوم وأسمها عاتكة مخزومية قدم المدينة مهاجراً بعد بدر بيسير وقد ذهب بصره وكان رسول الله ﷺ يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته وشهد القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع ثم رجع إلى المدينة فمات بها/ ابن قتيبة المعارف ص١٢٦.

القائمة بين المفسرين، وما دار حولها من آراء ضمن سياق البحث لأضهار واقعها الرسالي في أوائل دعوة التوحيد في مكة، والمقصود هنا بحث جدلية عصمة الأنبياء وتبيان الآراء فيها وأنطباعات بعض المفسرين وأهل الكلام غير المبررة لعصمة رسول الله ﷺ ولكن المساهمة الأهم في هذا السياق هو التطور المعرفي عند علماء الشيعة الأمامية في ما يخص ((نظرية العصمة)) والاستدلال على نفي كل الكبائر والصغائر من الذنوب عن الأنبياء إذ كان الذنب عمداً أو سهواً، إذ لا يجوز عندهم أن يبعث الله تعالى نبياً يمكن صدور الخطأ منه في أمر تبليغ الرسالة على سبيل السهو أو النسيان، لذا كان الأشمل لهذه الدراسة القرآنية أن تستوعب قدر الأمكان الآراء النافية لعصمة الأنبياء والآخر المثبتة لها إذا كان في حال تبليغ الدعوة أو غيرها من حياتهم عليهم السلام ومن بين هذه الآراء الأكثر إثارة لجدل ((حكاية الأعمى)) في الحوار القرآني.

حكاية الأعمى:

ويظل الوحي يتجدد نزوله ملازماً لحياة الرسول الجهادية متجاوباً ومرشداً له وداعياً ومسدداً يعلمه كل يوم شيئاً جديداً يسيره ويهديه، ويسير الرسول في ظله، فكان ﷺ يجد فيه راحة لقلبه وتسلية لنفسه يتدرج نزوله منجماً بحسب الحاجة مع الأحداث والوقائع، فقد عاتبه الوحي مرة على ميله إلى قومه -كما يراه بعض المفسرين -ميلاً قلبياً[٤٢] عندما جاءه ابن أم مكتوم الأعمى يستقرئه القرآن لعل أن يتعلم منه ما فاته من الوحي، والرسول كان مشغولاً مع الوليد بن المغيرة ورهط من أشراف قومه وزعمائهم يدعوهم إلى الإسلام، وقد طمع في إسلامهم، فقاطعه الأعمى وأشغله عن أمر الوليد ورهطه حتى أضجره، فلما أكثر عليه تولى عنه وأنصرف عابساً[٤٣] ولم يمكث إلا برهة حتى شغلته نفسه بمحاسبة ما صنعه مع الأعمى، فأنزل الله تعالى عليه الوحي في آيات ((سورة عبس)) قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ

(٤٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٣١ ص٥٥.

(٤٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص٣٨٩-٣٩٠.

يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ [سورة عبس: ١-١٦].

سبب العتاب:

هذه الصورة من العتاب عرضها القرآن بنوع من الحوار الذي لم يظهر فيه المتحاورون إلا بشيء من الرمزية، ولكن المشهد المصور كاف لإلقاء الضوء على هذه الرمزية القرآنية بخصائصها الحوارية، في قصة الأعمى الذي جاء يسترشد، غير أن الحكم على طبيعة هذه القصة يجب أن يخضع لمنطق القرآن أولاً.

وكان سبب العتاب تقديم الأغنياء المتجبرين على الفقراء المؤمنين حرصاً على تطبيق مبدأ المساواة في الإسلام وعدم التمييز بين أفراد المجتمع الواحد إلا بالتقوى، وهي قاعدة يجب أن تكون ضمن تصور أخلاقي كلي في المجتمع الإسلامي.

أما العتاب فلم يظهر إلا في سياق الغيبة، وقيل بناءً على كون المراد بالمعاتب هو النبي ﷺ حيث أن التعبير عنه أولاً: بضمير الغيبة إجلالاً له لإيهام أن من صدر عنه العبوس والتولي غيره ﷺ لأنه لا يصدر مثل هذا الوصف عن مثله، وثانياً: بضمير الخطاب إجلالاً له أيضاً لما فيه من الإيناس بعد الأيحاش والأقبال بعد الأعراض[٤٤] ولكن من خصائص هذا العتاب المفتتح بضمير الغائب لم يوجه إلى شخص معيّن بذاته قد تلبس بتلك الصفات، وإنما حكي أولاً واقع الحال الذي عليه الأعمى المسترشد المهتدي الذي جاء يتطهر بمعين الإسلام وما علق به من أثم الجاهلية، ليتذكر بالقرآن وأرشاداته لعل الذكرى تنفعه.

ثانياً: أظهار واقع الحالة الوصفية لمشهد العابس المستقطب الذي أعرض عن الأعمى وأنصرف عنه لكي يتلهى بأمر ما، إذ كان هذا الأمر من صالح الدعوة وأنتشارها في مكة أم لأمر آخر أقتضاه هذا الموقف، وإذا كان المقصود

(٤٤) الطباطبائي: الميزان ج٢٠ ص٢٠٠.

بهذا العتاب النبيﷺ أو شخصاً آخر -كما هو المروي -فالعتاب لا يخرج من كونه غرضاً من أغراض الدعوة فيه مقومات أخلاقية عالية أتخذت مساراً مهذباً من حوادث السيرة القائمة على حقيقة القيم التي تعيش في ضمائر الناس وداخل حياتهم الاجتماعية، لأظهار الواقع الذي ترتسم عليه حالة عصر الرسالة[٤٥] في تصور القرآن لها وتحديد الرؤية في تلك الأستمالة التي ذكرتها الآيات والتي تحمل تصوراً للتعامل الاجتماعي الذي يجب أن يسلكه المسلمون، مادام للدين دور حاسم في صنع الأخلاق وهذا الموقف يعّد مسألة أخلاقية بأمتياز، وهو خلاف ما أنصف به النبيﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[سورة القلم: ٤] وقد يرجع سبب أسناد الفعل للنبي إلى أن خطاءً أرتكب في أوائل نقل الأحاديث التي أرخت إلى آيات النزول، قد يكون متعمداً أو غير واضحة لهم الرؤية آنذاك.

القائلون بصدور الذنب من الأنبياء:

يرى أكثر القائلين من المفسرين وغيرهم بصدور الذنب عن الأنبياءعليهم السلام استنبطوا رأيهم من هذه الآيات وتمسكوا بها، وقالوا: لما عاتب الله تعالى نبيه في ذلك الفعل دل على أنه كان معصية[٤٦] حيث العتاب لم يقع للفعل الظاهر، وإنما كان ميلهﷺ إلى قومه ميلاً قلبياً بسبب قرابتهم وشرفهم في قومهم، وقد استبعد الفخر الرازي دلالة الآيات على المعصية، قال: وهو يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول ((عليه الصلاة والسلام)) وإذا كان كذلك كان ذلك جارياً مجرى ترك الأحتياط، وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنباً البته[٤٧].

ويرى صاحب المنار، أن النبي نفسه قد يخطئ في اجتهـــاده ولكن الله تعالى يبين له ذلك ولا يقره عليه، كما صرح به العلماء، فهو معصوم من الخطأ في التبليغ، عن الله تعالى لا في الرأي والأجتهاد، ومنه ما سبق من أجتهاده ((صلوات الله وسلامه عليه)) بمكة في الأعراض

(٤٥) رشيد رضا: المنار ج١٠ ص٩٤.

(٤٦) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٣١ ص٥٥.

(٤٧) المصدر نفسه.

عن الأعمى الفقير الضعيف عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه حين جاءه يسأله وهو يدعوا كبراء اغنياء المشركين المتكبرين إلى الإسلام لئلا يعرضوا عن سماع دعوته فعاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: ((عبس وتولى))، ولكنه يرى أن الله يعاتب رسوله على الخطأ في الأجتهاد مع حسن نيته فيه ويعده ذنباً له ويمن عليه بعفوه عنه ومغفرته له، ويعلل ذلك ويقول: على كون الخطأ في الأجتهاد معفو عنه في الشريعة، لأنه في علو مقامه وسعة عرفانه يعد عليه من مخالفة الأولى والأفضل والأكمل ما لا يعد على من دونه من المؤمنين، على قاعدة: حسنات الأبرار سيئات المقربين[٤٨].

وقال الزمخشري: فما كان عليه أن يقدم الأغنياء على الفقراء، أنما يجب أن يكون متعاطفاً مع الفقير الأعمى الذي يستحق الرفق والرأفة لسبب عماه، وفي الأخير عما فرط منه، ثم الأقبال عليه بالخطاب: دليل على زيادة الأنكار، وضرب مثلاً لذلك قائلاً: كمن يشكو إلى الناس جانباً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة، وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك، كأنه يقول: قد أستحق عنده العبوس والأعراض لأنه أعمى، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً[٤٩].

وفي تفسير القرطبي عن أبن زيد قال: إنما عبس النبي ﷺ لأبن أم مكتوم وأعرض عنه لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه أبن أم مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوع جفاء منه، ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ ((عبس وتولى)) بلفظ الأخبار عن الغائب تعظيماً له، ولم يقل عبست وتوليت. ثم أقبل بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال: ((وما يدريك)) أي يعلمك ((لعله)) يعني أبن أم مكتوم ((يزكى)) بما أستدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين بأن يزداد طهارة في

(٤٨) رشيد رضا: المنار ج١٠ ص٩٤ أما كلمة حسنات الأبرار للعارف ابي سعيد الخزاز الصوفي وقد اشتهرت لحسنها حتى حسبها بعض الناس حديثاً نبوياً.

(٤٩) الزمخشري: الكشاف ج٤ ص٧٠١.

دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه[٥٠].

أما الآلوسي[٥١] والخازن[٥٢] والبيضاوي[٥٣] وتفسير الجلالين[٥٤] كلهم نقلوا حديث النزول المستوعب لقصة الأعمى وهو التفسير التاريخي لهذه الشبهة من حيث معطياتها الزمنية والمكانية ولم تتخذ هذه التفاسير موقفاً نقدياً أو تحليلياً، يدعو للتفكير والتأمل العقلي كي يمكنها من إيجاد الصيغة المناسبة للخروج من هذه الشبهة المخلة في مسيرة الدعوة، ونتائجها المرتبطة بعصمة الرسول، مع العلم أن النص القرآني بأصالته البلاغية وثروته اللغوية يوفر للدارس أكثر الأمكانيات لتأويل الآيات التي جاءت في سورة ((عبس)) ولابد من صرف الكلام عن ظاهره وحمله على ما يليق بعصمة النبي ﷺ وهذا العبوس، والتولي، والتلهي عن الفقير الأعمى لا يتفق مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة ال عمران: ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الشعراء: ٢١٥].

القائلون بالتنزيه:

شاع بين المفسرين عتاب الله تعالى لرسوله في حكاية الأعمى بن أم مكتوم، ولعل من مظاهر هذا الشيوع الذي أحدث أشكالية بين أهل الاختصاص من المفسرين على اعتبار أن المعلومات الواردة فيها بالإدانة إلى رسول الله ﷺ على فرض وجودها لم تقترن بها أدلة لا نقلية ولا عقلية على أن المعاتب رسول الله ﷺ وهذا ينافي عصمته في تبليغ الرسالة التي بعث من أجلها، كما أن الدليل العقلي على أن الأعراض عن الفقير المسترشد والأقبال على الغني المستكبر قبح عقلي مناف لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج معه إلى الالتزام بالتجنب عنه إلى نهي لفظي[٥٥] بل هو خير محض لم يصرح بالمخبر عنه، وفيها ما يدل على أن المعنى

(٥٠) القرطبي: جامع لأحكام القرآن ج١٠ ص١٤٢.
(٥١) الآلوسي: روح المعاني ج١٥ ص٢٤١.
(٥٢) الخازن: لباب التأويل ج٦ ص٣٦٥ مع البغوي.
(٥٣) البيضاوي: أنوار التنزيل ص٧٨٤.
(٥٤) السيوطي والمحلي: تفسير الجلالين ص٥٠١.
(٥٥) الطباطبائي: الميزان ج٢ ص٢٠٣.

بها غيره، لأن العبوس ليس من صفات النبيﷺ مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين، ثم الوصف بأنه يتصدى للعنباء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة(٥٦).

والظاهر من هذه المفارقات الغريبة الحاصلة في بعض التفاسير أن البعض من المفسرين لم يتحرج من وصف رسول الله ونعته بهذه الصفات التي تخل بالآداب المتبع مع رسول الله إذ كان حياً أو ميتاً، مع العلم أن مجرد النداء الباعث على عدم الآداب معه معصية لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[سورة الحجرات: ٥] فإذا كان لمجرد النداء، هذه صورته الإنكارية لعدم التعقل في الخطاب؟. فكيف القدح بعصمته مع وجوب طاعته المطلقة كطاعة الله لقوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[سورة النساء: ٨٠] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[سورة النساء: ٦٤] فلما كانت طاعة النبي بهذه الأدلة النقلية واجبة كطاعة الله، فهل يمكن تخطئته أو حصول له الخطأ في ما يقول أو بفعل؟.

وكيف نلتمس الأدلة التي يظهر فيها هو العابس، وليس العبوس والتقطيب من صفاتهﷺ الذي أجلَ الله قدره عنها ووصفه بالخلق العظيم، لأن الخلق الرفيع من صفاة الدعاة إلى الله حتى يتبع في ما يدعو إليه، أما فضاضة الخلق وقسوة القلب وغلظة الطبع ليس سائغة ومحببة لسائر الناس، فكيف تكون من طبع رسول اللهﷺ وأن الله نزهه عن مثل هذه الصفات قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[سورة ال عمران: ١٥٩].

هذه الفوارق الخلقية في حسن بعض الصفات وقبح بعضها حقائق ثابته يتمتع بها سائر الناس فكيف بالأنبياء الذين عصمهم الله وجبلهم على حسن الخلق الذي فطرهم عليه وقد خص من دونهم رسول الله بمكارم الأخلاق وحسن الصحبة حتى قيل إنه لم يكن يصافح أحداً قط فينزع يده من يده، حتى يكون

(٥٦) الطبرسي: مجمع البيان ج١٠ ص٤٣٧.

ذلك الذي ينزع يده من يده[٥٧] لأن الله أدبه فأحسن تأديبه، كما في الحديث المروي عن الأمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: أن الله عز وجل أدب محمداً صلى الله عليه وآله فأحسن تأديبه فقال: خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين، فلما كان كذلك قال الله تعالى وأنك لعلى خلق عظيم فلما قبل من الله فوض إليه فقال: وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فأنتهوا وكان يضمن على الله الجنة فأجيب له ذلك[٥٨] ولا شك أن الخطاب القرآني مثّل مرجعية معيارية للنظر والحكم بالتنزيه فلا قيمة للرأي الآخر.

أشكالية الحدث عند الفخر الرازي:

هنا في قصة الأعمى تشابك كبير في آراء المفسرين بين النفي والأثبات في دلالة الآيات التي تحدثت عن القصة، ولكن الأجماع كان حاصلاً على أن الذي نزلت الآيات في حقه هو أبن أم مكتوم الأعمى، وفي هذا المنظور القرآني ومن خلال أحاديث النزول وما تضمنت الحالة الاجتماعية في بدء الدعوة تعامل الفخر الرازي في ضمن هذا التشابك في الإشكالية التي أوردها ثم أجاب عنها بما يتفق والمرحلة الأولى في الدعوة الإسلامية.

شارحاً ما يستدعيه الموقف من الأعمى، وهي صورة من صور حوادث السيرة النبوية في توجيه النفوس المؤمنة على حقيقة القيم الأخلاقية التي ينشدها القرآن للمجتمع المسلم فهي ليس تعبيراً عن واقع الحدث فحسب بقدر ما تكون تأويلاً وتعليلاً في شرح المواقف التي أثارتها الآيات في حكاية الأعمى منها.

١. أن أبن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر، ولكن كيف عاتب الله رسوله ما دام يستحق التأديب والزجر؟. لكونه فاقد البصر لا يرى القوم الذي كان يتحدث أليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول لأولئك الكفار، وكان يسمع أصواتهم أيضاً، وكان يعرق بواسطة استماع

(٥٧) الطوسي: التبيان ج١٠ ص٢٦٨.
(٥٨) المسعودي: مروج الذهب ج١ ص٤٠٤.

تلك الكلمات شدة أهتمام النبي ﷺ بشأنهم، لذا كان اقدامه على قطع لكلام النبي ﷺ بأرادة وتحقيق غرضه، قبل غرض النبي وكان إيذاء ومعصية للنبي ﷺ.

٢. أن الأهم مقدم على المهم، وكان الأعمى قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج أليه من أمر الدين، أما أولئك الكفار كان إسلامهم سبباً لإسلام جميع عظيم من الناس فألقاء أبن أم مكتوم الأسئلة على النبي ﷺ كان سبباً في قطع ذلك الخبر العظيم المرجو من إسلام القرشيين لغرض قليل، وذلك محرم.

٣. أنه تعالى وقر نبيه وعظمه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ٤] فنهاهم الله تعالى عن مجرد النداء، فكيف النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الأيمان، وكالقاطع على الرسول من أعظم مهماته في الدعوة، إذن أولى أن يكون ذنباً ومعصية، والذي فعله الرسول كان صواباً[٥٩].

هذه مجمل الإشكاليات التي أوردها الفخر الرازي، ولم نلمس في فقراتها أي عتاب فيها إلى رسول الله ﷺ، وإنما على ما ظهر من كلامه الإدانة إلى ابن مكتوم لموقفه من رسول الله ﷺ ولكن الإشكالات لم تنته، وهنا وجه الفخر الرازي بأسئلة حول قصة الأعمى ثم أجاب عليها.

السؤال الأول: كيف عاتبه الله على ذلك الفعل؟.

أجاب عليه من وجهين: الأول: أن ظاهر الواقعة يوهم بتقديم الأغنياء على الفقراء، وانكسار قلب الفقراء، ولهذا السبب حصلت المعاتبة، ونظيره، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾[سورة الأنعام: ٥٢].

الثاني: لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول ﷺ من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه ﷺ،الذي مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه، فلما

(٥٩) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٣١ ص٥٤.

وقع العبس والتولي وقعت المعاتبة.

السؤال الثاني: أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس في وجهه، كان تعظيماً من الله تعالى لأبن أم مكتوم، وإذا كان كذلك، فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره بأسم الأعمى مع أن ذكر الأنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه جداً؟.

الجواب: أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه، بل كأنه قيل أنه بسبب عماه أستحق مزيد من الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة.

السؤال الثالث: الظاهر أنه ((عليه الصلاة والسلام)) كان مأذونا في أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة، وأنه ((عليه الصلاة والسلام)) كثيراً ما كان يؤدب أصحابه، يزجرهم عن أشياء، وكيف ما يكون كذلك وهو ((عليه الصلاة والسلام)) إنما بُعث ليؤدبهم ويعلمهم محاسن الاداب، وإذا كان ذلك مأذوناً فيه، فكيف وقعت المعاتبة؟.

الجواب: أنه كان مأذوناً لتأديب أصحابه لكن هنا لما أوهم تقدم الأغنياء على الفقراء كان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة[٦٠].

وخلاصة هذه الإشكالات وأجوبة الأسئلة أجاب عنها الشيخ الطوسي قال: وكيف تكون هذه الصفات من رسول الله ﷺ وقد أجل الله قدره من هذه الصفات؟. وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب، وقد وصفه بأنه ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[سورة القلم: ٤] وقال تعالى:﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩] وكيف يعرض عمن جاءه وقد ذكره تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[سورة الأنعام: ٥٢] ومن عرف النبي ﷺ وحسن أخلاقه وما خصه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة حتى قيل إنه لم يكن يصافح أحداً قط فينزع يده من يده، حتى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده، فمن هذه صفته كيف يقطب في وجهه أعمى جاء يطلب الإسلام، على أن

(٦٠) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٣١ ص٥٥.

الأنبياء عليهم السلام منزهون من مثل هذه الأخلاق وعما هو دونها لما في ذلك من لتنفير عن قبول قولهم.

وقال قوم: إن هذه الآيات نزلت في رجل من بني أمية كان واقفاً مع النبي ﷺ فلما أقبل أبن أم مكتوم تنفر منه، وجمع نفسه وعبس في وجهه وأعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك وأنكره معاتبه على ذلك[٦١].

خاتمـــــــــة:

في آخر المطاف لا يمكن فهم هذه الآيات والخروج بنتائج صحيحة إلا بتفعيل الأدلة العقلية وما يعضدها من أدلة نقلية لتتضح الصورة التي فيها الكثير من الغموض لأنها تحمل عنصر التمييز بين أفراد المجتمع، وهو خلاف ما يسعى أليه الإسلام الذي لا يميز بين المسلمين إلا بالتقوى، فكيف يميز رسول الإسلام الكافر الجاحد للإيمان على المسلم المؤمن، فلا يتم تأويل الآيات إلا أن يكون هناك شخص ثالث كان بقرب النبي عند حضور الأعمى فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فتوجه له هذا العتاب الشديد، ولا سيما هناك مؤشر على وجوده أخبرت به الأحاديث فتكون صورة العبوس والإعراض حاصلة والأخبار عنه بلفظ الغائب، وهو الكثير ما يحدث في الخطاب القرآني على أن يكون الخطاب إلى النبي والمقصود غير كما مر عن أبن عباس في اول البحث أنه قال: ((نزل القرآن بإياك أعني واسمعي يا جارة))[٦٢].

ولعل الرؤيا في نقل خبر النزول يشوبها الكثير من الدقة وهي بحاجة إلى غربلة أو استنطاق بالمقارنة مع روايات أخرى نظراً لتعدد الرواة وأختلافهم بالأشخاص الذي كانوا مع الرسول في أثناء قدوم أبن أم مكتوم ولا سيما وردت هذه الأخبار عن رواة من التابعين، ولم ترد عن رواة الصحابة، قال مجاهد: كانوا ثلاثة: عتبة، وشيبة أبنا ربيعة: وأبي بن خلف، وقال عطاء: عتبة بن ربيعة وقال سفيان التورى: كان النبي مع عمه العباس إلى غير ذلك

(٦١) الطوسي: تفسير التبيان ج١٠ ص٣٦٨-٣٦٩.

(٦٢) المرتضى: تنزيه الأنبياء ص١١٩.

من الأقوال المختلفة حتى كان اختلافهم في أسم أبن أم مكتوم، هل هو عبد الله بن أم مكتوم أم عمر بن أم مكتوم؟.[٦٣] كل ذلك يدعو إلى الشك في ما يدخل ضمن رهانات الصراع على السلطة بعد مقتل الخليفة الثالث التي تشير بعض المصادر وجوده مع رسول الله ﷺ عند قدوم أبن أم مكتوم الأعمى على رسول الله ﷺ.

أما كون هذه الآيات نزلت في عتاب النبي ﷺ دون غير فليس في ظاهرها دلالة على أنها متوجهة إلى النبي ﷺ بل هو كما ورد خبر محض لم يصرح به المخبر عنه، كما هو الواضح نفي الآيات عن التخصيص على أن المعني به غيره لأن العبوس ليس من صفاته.

إذن كل ما ذكر في تفسير الآيات التي ظاهرها تخطئة رسول الله وعتابه وأحتمال وقوع الذنب منه كلها واقعة خارج دائرة الاعتبار لأنها مجرد شبهات وتأويلات غير صائبة ولا يصح الاستناد أليها والاعتماد عليها لأنها خارجة عن خصائص النبي ولا تتفق ونظرية العصمة.

(٦٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ص١٤١ -١٤٢.

واستصحاباً لما جاء في التفاسير التي اسندت العبوس والاعراض إلى النبي ﷺ فلو صح خبر العبوس عن النبي ﷺ هل يكون العبوس ذنباً أم لا فالجواب كما يراه الشيخ الطبرسي -أن العبوس والانبساط مع العمى سواء إذ لا يشق عليه ذلك فلا يكون ذنباً فيجوز أن يكون عتاب الله سبحانه بذلك نبيه ﷺ ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق وينبهه بذلك على عظيم حال المؤمن المسترشد ويعرفه أن تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه، وقيل أن ما فعله الأعمى نوعاً من سوء الأدب فحسن تأديبه بالإعراض عنه إلا أنه كان يجوز أن يتوهم أن اعرض عنه لفقره وأقبل عليهم لرياستهم تعظيماً لهم فعاتبه الله سبحانه على ذلك وروي عن الأمام الصادق عليه السلام أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحباً مرحباً لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً وكان يصنع به من اللطف حتى كان ليكف عن النبي مما يفعله به[٦٤].

(٦٤) الطبرسي: مجمع البيان ج١٠ ص٤٣٧.

بسم الله الرحمن الرحيم
صدق الله العظيم

إقْتِباسُ مَعَانِي القُرْآنِ الكَرِيمِ في الأَدْعِيَةِ المَأثُورَةِ عَنْ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام

أ.م.د. علي خياط

الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية - مشهد المقدسة

فحوى البحث

يمثل الدعاء الجزء الأكثر إشراقا وتعالياً من حياة الرسل و أوصيائهم عليهم السلام. فالأدعية الموروثة عنهم، تمثل في جوهرها القيم والمعاني التي جاء بها القرآن العظيم، وميراثا يستحق اليوم غاية الاهتمام والتأمل، فهي تنطوي على أسمى وأرق و أفصح التعاليم واكثرها قدرة على التوغل في أعماق النفس الانسانية وخلق التغيير فيها. وعلى هذا بنى أهل البيت عليهم السلام معاني أدعيتهم المأثورة عنهم في كتب مستقلة أو في نصوص ترويها الأخبار والتي يرى فيها كاتب البحث أفكاراً تنبثق من روح القرآن الكريم. لتشكل الأسَّ الذي تقوم عليه منظومتهم الفكرية والنظرية. كذلك فهي (الأدعية) تعدّ الاساس لجميع التحليلات والاوصاف والوصايا باسلوب خاص متميز.